تأبين المؤرخ بوعلام بلقاسمي [1955-2017]

بقلم: الأستاذ الدكتور ودان بوغفالة

مدير مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر

لا يُنكر فضل المؤرخ بوعلام بلقاسمي في التأسيس للبحث العلمي الجاد وترسيخ قواعده بالجزائر، في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية إلا جاحد، توجيها وترشيدا، ومتابعة ورعاية، وإشرافا لأكثر من ربع قرن.

ترأس وشارك في مئات الندوات والملتقيات، والاجتماعات المحلية والجهوية والوطنية والدولية. وأكاد أجزم أن لا أحد من الباحثين في التاريخ بمختلف حقبه وتخصصاته بالجامعات الجزائرية ومراكز البحث، شبابا وشيوخا، لم يحتك به في مناسبة ما، ويستمع إلى ملاحظاته القيمة، وتدخلاّته المتميزة وتوجيهاته الهادفة.

تحصَّلْتُ على شهادة الليسانس من وهران، ولم أتعرف على بوعلام عن قرب إلا وأنا بجامعة الجزائر أحضر رسالة الماجستير. كنتُ أتابع حضوره الدوري لمناقشة رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه، وشدّ انتباهي تألّقه، وتوهّج مكانته، وإعجاب الباحثين به والثناء عليه. وكان يتوجّب عليّ أن أنتظر عشر سنوات كاملة، لأتشرّف برئاسته للجنة التأهيل بجامعة وهران، ولم أفلح قبلها بعامين في ضم اسمه إلى لجنة مناقشة الدكتوراه بجامعة الجزائر، تحت إشراف أستاذي الفاضل الدكتور ناصر الدين سعيدوني .

انتقدني بهذه المناسبة، بخصوص مقال نشرته يتعلق بتاريخ العائلات، فقال لي: كيف تكتب تاريخ عائلة تنتمي إليها؟ وماهي حظوظ الموضوعية وحدودها في هذا البحث؟ قُلتُ له: لم يَكتُبْ غيري عنها، وعرّفتُ بالأرشيف الخاص بها. فقال لي: هل تجرؤ على سرد العيوب وذكر كل المواقف؟ قلت له: من الصعب قول الحقيقة كاملة. قال لي: قد يُشحَنُ بحثُكَ بالذاتية ويضيع التاريخ؟

اختلفَ بوعلام مع غيره، ولكن ليس للانتصار لقضايا شخصية، وتحقيق مكاسب فردية آنية. احتجّ وانسحب، وامتعض وحارب ما كان يخشاه أن يُفضي في نظره إلى التعثر والمحاباة والجمود، ولطالما نبّه لخطورة القضايا الهامشية في هدر الوقت والطاقة.

استمات بوعلام في الدفاع عن الجزائر في الماضي والحاضر، وعن القضايا التاريخية الكبرى، واستقطب تاريخ الجزائر المعاصر اهتمامه، وشَغَلَ باله، واستفزّ قلمه. كَتَبَ بوعلام في قضايا تاريخية عديدة ونشر أبحاثه. ولكن مساهمته مع ثلّة آخرين في استكمال بناء المدرسة التاريخية الجزائرية، وتشييد صرحها، وتثبيت هويتها من خلال دور الإشراف والتأطير والتسيير والتوجيه، وتكوين الباحثين ووضعهم على السكة، لَهِيَ مُساهمة فريدة وجليلة وخالدة، خَطَّها بتضحيته بوقته وجهده وعائلته، وتَجَرُّدِهِ وإخلاصه وصدقه، وإيثاره وتقديمه للمصلحة العامة واسم الجزائر، على مصلحته الفردية الضيقة، واسمه الشخصي.

سيشهد الأرشيف ووثائقه التي تعج بذكر اسمه، وتتطرّزُ وتتزيّنُ بتوقيعه؛ على عظمة الرجل وفاعليته، شأنه في ذلك شأن عظماء الجزائر عبر التاريخ. "**فإذا كان أبو القاسم سعد الله هو شيخ المؤرخين للجيل الأول، فإن بوعلام أبو القاسم أيضا هو شيخ المؤرخين للجيل الثاني بدون منازع، وبكل جدارة واستحقاق**"، واعتذر لكل من يترشح لهذه الدرجة.

خطفك الموت وأنت لا تزال في أوج العطاء والعزم والإقدام، رحمك الله يا بوعلام، وطيّب ثراك، وأكرم مثواك، وجعل الجنة مُستقرّك ومأواك.

بمدينة معسكر يوم: 2017/07/26